

اللغة عند الجاحظ في كتاب البيان والتبيين

زكريا غازي المحمد(*)

نخوض في هذا البحث في بحر أديب من أدباء العصر العباسي ، إنه بحر أبي عثمان عمرو بن بحر ، هذا البحر العَظَامِطُ اللَّجِبُ الذي يمثل خلاصة ذاك العصر بما امتلكه من معرفة رفيعة ، وعلم واسع .
ولأنَّ السُّفْنَ غيرَ المصقولة تضيعُ في بحرِ الجاحظِ ، ولاعترافنا بقصرِ التجربة قصرنا بحثنا هذا على كتابٍ واحدٍ من كتبه ، ألا وهو «البيان والتبيين» ، وربما قال أحدهم أو ردَّدَ مقولةَ الجاحظِ: «ما تركَ الأوَّلُ للآخرِ شيئاً» . وأقصدُ هنا ما تركَ الأوَّلُ للآخرِ مجالاً للدُّرسِ في أدبِ الجاحظِ وثقافته ، أقولُ: هذا لا يعني أنْ نطوي صفحةَ هذا الرائدِ الكبير وأنْ نحرمَ أنفسنا متعةَ تقليبِ النظرِ في أدبه وفنِّه ، والنزهة في بستانه الذي يجنينا اليانِعَ مِنَ الثمرِ ، ويرينا بدائعَ الزهرِ .

* باحث بكلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة البعث - سوريا .

وصحيحٌ أن أدبَ الجاحظِ قد حظيَ بدراساتٍ تكادُ تعاني التَّخمةَ ،
ولكن على حَدِّ علمِنَا ومن خلال ما وقعَ بينَ أيدينا مِن كتبٍ تناولت أدبَ
الجاحظِ وحياته وفكره فإنه لا توجدُ دراسةً خاصةً ومستقلةً لثقافةِ الجاحظِ
اللغوية. ومن هنا وقعَ اختيارُنَا على دراسة الجانب اللغوي عند الجاحظِ
في كتابه "البيان والتبيين" ، فبدأنا نفثُشُ عن المادة اللغوية أينما وجدت في
أجزاء الكتاب ، ومما وجدناه مادة تدور حول نشأة اللغة ، ومواد أخرى
تناولت الحديث عن الجهاز النطقي ، وعيوب النطق ، والصوت ،
والحروف ، واللحن ، واللهجة ، والفصحى.

وقد قمنا بمناقشة تلك المواد من خلال مقارنتها بمثيلاتها عند غير
الجاحظ من اللغويين العرب ، وذلك للكشف عن مصداقية ما تحدَّث عنه
الجاحظ في الجانب اللغوي.

وهذا هو النهج الذي اتبعناه في الدراسة ، فإنَّ وفَّقْنَا فهذه غايُتنا ، وإلَّا
فحسبي أني أحسنتُ النيَّةَ ، وإنَّما الأعمالُ بالنيَّاتِ ، وسأظلُّ أُرَدِّدُ:
يا ربُّ هذا ما حَبَّوت فأَقِلَّ عِشاري إن كَبَّوتُ
العفوُ منك مُؤَمِّلٌ كُلُّ السَّعادةِ إن عَفَّوتُ

ثالثاً: نشأة اللغة:

الحديثُ عن نشأة اللغة حديثٌ ليس باليسير ، وكلُّ ما قيلَ فيه هو مِن
قبيلِ الفروضِ التي لا تستندُ إلى أسسٍ سليمةٍ ، فنشأة اللغة مرتبطةٌ بنشأة
الإنسان ، أو بنشأة المجتمع الإنساني ، وبأطوار الحياة الاجتماعية التي مرَّ
بها ، وبالحاجات والدوافع التي يحتملُ أن تكونَ قد ألجأته إلى اصطناعِ هذا
النظام الذي هو اللغة ، وبالرغم من الدراسات والبحوث المطوَّلة فلا تزالُ

هناك أسئلة متعطشة لا تجد أجوبة ترونها ، من هذه الأسئلة: كيف تكونت للإنسان لغة؟ كيف توصل الإنسان إلى هذا النظام؟ أتوصل إليه بنفسه أم أوحى به إليه إحياء؟ إلى غير ذلك مما شغل الناس منذ القديم.

ونحن هنا لا نطلب من الجاحظ أن يبت في هذا الأمر ، لا نريد منه أن يثبت هذه الفرضية وينقض تلك ، وما أردناه هو كيف نشأت اللغة بحسب ما يعتقد الجاحظ ، فالقطع والجزم بأمر نشأة اللغة موضع محوج إلى فضل تأمل.

يقول الجاحظ: لعمرى إن الناس إلى الكلام لأسرع ، لأن في أصل التركيب أن الحاجة إلى القول والعمل أكثر من الحاجة إلى ترك العمل والسكوت عن جميع القول...^(١) نستشف من هذا القول أن الجاحظ يرى أن الحاجة الاجتماعية هي السبب المباشر الذي أدى لنشوء اللغة ، فالحاجة إلى القول موجودة في المجموعة البشرية ، ليس هذا فحسب ، بل إن حاجة هذه المجموعة البشرية للغة الكلام كحاجتها للعمل ، فكما أن العمل سبيل تواصل واستمرار لهذه المجموعة كذلك تكون اللغة ، فهي سبيل التواصل والتفاهم ، وهذا يقودنا إلى أن الجاحظ يرى أن اللغة عريقة اصطلاحية ، حاجة الناس للتفاهم دفعتهم لإيجادها ، ومن طرف آخر نستطيع أن نأخذ من قول الجاحظ بأنه كما كان العمل المشترك عاملاً في تجميع المجموعات البشرية كانت اللغة سبيلاً لإيجاد علاقة بين سكان كل مجموعة تجمعهم وتشدهم نحو بعضهم البعض.

لقد ذهب علماء اللغة قديماً وحديثاً في أصل وضع اللغة مذاهب شتى ، ولعل رأي الجاحظ في نشأة اللغة ناتج عن اعتقاده بالمذهب

المعتزلي ، فكما هو معروف أنَّ الجاحظ معتزلي المذهب ، والمعتزلة يغلبون العقل على النص ويأخذون بالتأويل ، ويبدو أنَّ أصحاب هذا المذهب ممن يشتغلون باللغة يذهبون إلى أنها تراضع واصطلاح ، والطريف أنَّ الجاحظ لم يذكر الآية الكريمة: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ ، على علمه بها ، ولا أدري علَّة ذلك ، لأنها تتعارض مع رأيه أم أنه لم يرد الخوض في تفاصيل تلك القضية؟

يقول الدكتور رمضان عبد التواب: ليس لهذا المذهب [أي: مذهب المواضع والاصطلاح] أيُّ سندٍ عقلي أو نقلي أو تاريخي، بل إنَّ ما يقرره ليتعارض مع النواميس العامة التي تسير عليها النظم الاجتماعية ، فعهدنا بهذه النظم أنَّها لا ترتجل ارتجالاً ، ولا تخلق خلقاً ، بل تتكون بالتدريج من تلقاء نفسها...^(٢) وأعتقد أنَّ اللغة في أساسها هي وحي من الله تعالى ؛ لأنَّ الإنسان ليس لديه القدرة على تسمية الأشياء دون تلقين.

رابعاً: الجهاز النطقي :

الجهاز النطقي عند الإنسان عبارة عن التجويف الفموي والأنفي والحلق والحنجرة والقصبه الهوائية والرتتين^(٣). والجاحظ في كتابه البيان والتبيين لا يتحدث عن جميع هذه الأعضاء ، وإنَّما عن بعضها مشيراً إلى تأثير كلِّ منها في صوت المتكلم ، ففي كلامه على الأسنان ذهب إلى أمرٍ غريبٍ ، فقد رأى أنَّ سقوط جميع الأسنان أفضل في أداء الحروف من سقوط بعضها ، حيث قال: وقد صحَّت التجربة وقامت العبرة على أنَّ سقوط جميع الأسنان أصلح في الإبانة عن الحروف منه إذا سقط أكثرها ، وخالف أحد شطريها الشطر الآخر^(٤).

والجاحظ لا يقول هذا الكلام من باب التخمين ، وإنما كلامه كلام
الواثق المجرب الذي يستعمل لكل صنف من الحقائق الطريقة الخاصة بهذا
الصنف ، ففي صنف تحسن التجربة ، وفي صنف يحسن العقل ، وفي ناحية
تحسن التجربة والعقل معاً ، ولأنه يدرك أن مثل هذا القول قد يُدْخِلُ في
نفس المتلقي الارتباب ، ويوقعه في دائرة الشكوك ، راح يعرضُ البرهان
ليقطع الشك باليقين ، فقال: وقد رأينا تصديق ذلك في أفواه قوم شاهدتهم
الناس بعد أن سقطت جميع أسنانهم ، وبعد أن بقي منها الثلث أو
الرابع^(٥).

بعد ذلك يتابع الحديث عن أشخاص سقطت جميع أسنانهم ، ولكنهم
كانوا أصحاب بيان ولَسْنٍ كما يقول ، ثم يعودُ لحديث أهل المشاهدة
والتجربة ، فيقول: قال أهل التجربة إذا كان في اللَّحْم الذي فيه مغارز
الأسنان تشميرٌ وقَصْرٌ سَمَكٌ ذهبت الحروف ، وفسد البيان ، وإذا وجدَ
اللسان من جميع جهاته شيئاً يقرعه ويصكه ولم يمر في هواء واسع المجال
وكان لسانه يملأ جوبة فمه لم يضره سقوط أسنانه إلا بالمقدار المغتفر والجزء
المحتمل ، ويؤكد ذلك قول صاحب المنطق أرسطو طاليس فإنه زعم في
كتاب الحيوان أن الطائرَ والسبعَ والبهيمةَ كلُّما كان لسان الواحد منها
أعرض كان أفصح وأبين^(٦).

نفهم من كلام الجاحظ أنه كلما اتسع المخرج عن وضعه الطبيعي فإنَّ
الحروفَ تبعثرُ ، ولا تكون سليمة النطق ، فإذا سقطت الأسنان وكان لحم
مغارزها لا يشكو من تشميرٍ وقَصْرٍ سَمَكٍ ، وكان اللسان يملأ جوبة الفم
بحيث يلامس أو يصطدم بلحم المغارز من الطرفين فإنَّ مقدارَ ضرر سقوط

الأسنان يكون ضئيلاً ومغتفراً ، وما نزال مع أهل التجربة في كتاب الجاحظ حيث قالوا: والدليل على أن من سقط جميع أسنانه أن عظم اللسان نافع له ، قول كعب بن جُعيل ليزيد بن معاوية حين أمره بهجاء الأنصار فقال له: أرادي أنت إلى الكفر بعد الإيمان ، لا أهجو قومًا نصرُوا رسول الله ﷺ وآووه ، ولكني سادلك على غلام في الحي كافرٍ كأن لسانه لسان ثور. قالوا: ويدل على ذلك أيضًا قول حسان بن ثابت حين قال له النبي ﷺ: ما بقي من لسانك؟ فأخرج لسانه حتى قرع بطرفه طرف أرنبته ، ثم قال: والله أن لو وضعت على شعر لحلقه ، أو على صخر لفلقه ، وما يسرني به مقول من معد^(٧). وقد ضرب الذين زعموا أن ذهاب جميع الأسنان أصلح في الإبانة عن الحروف من ذهاب الشطر أو الثلثين في ذلك مثلاً فقالوا: الحمام المقصوص جناحاه جميعاً أجدر أن يطير من الذي يكون جناحاه أحدهما وافرٌ والآخر مقصوصٌ ، قالوا: وعلة ذلك التعديل والاستواء ، وإذا لم يكن ذلك كذلك ارتفع أحد شقيه وانخفض الآخر فلم يجذف ولم يطر^(٨).

ثم يذكر الجاحظ أكثر الحروف صعوبة في النطق على الأهتم فيقول: وليس شيء من الحروف أدخل في باب النقص والعجز من فم الأهتم من الفاء والسين إذا كانا في وسط الكلمة ، فأما الضاد فليست تخرج إلا من الشدق الأيمن ، إلا أن يكون المتكلم أعسر يسراً ، مثل عمر بن الخطاب - رحمه الله - فإنه كان يُخرج الضاد من أي شذقيه شاء ، فأما الأيمن والأعسر والأضبط فليس يمكنهم ذلك إلا بالاستكراه الشديد^(٩). وعلة ذلك نجده في علم الأصوات ، فعند النطق بالسين تقترب الأسنان العليا من السفلى

فلا يكون بينهما إلا منفذ ضيق جداً ، وكذلك عند النطق بالفاء فإن الشفة السفلى تقترب من أطراف الثنايا العليا بحيث يسمح للهواء أن يشق طريقه بينهما وخلال الثنايا.

وهكذا نجد أن الأسنان تؤثر كثيراً في نطق الفاء والسين خاصة ، وبقية الأحرف بشكل عام ، ففي حال سقوط الأسنان يحدث خلل في المخرج ، وبالتالي تغير في الأصوات ، أما الضاد فتكون بمرور الهواء بالحنجرة ، فيحرك هذا الحرف الوترين الصوتيين ، ثم يتخذ مجراه في الحلق والقم ، ولعل الجاحظ يخالف أكثر الرواة الذين قالوا: إن مجراه في القم جانبي عن يسار القم ، بينما جعل الجاحظ مجراه من الشدق الأيمن ، والذين قالوا بالشدق الأيمن قلة ، أما سيبويه فقال يخرج من كلا الجانبين^(١٠).

أما اللسان فكان اهتمام الجاحظ به أكبر من اهتمامه بالأسنان ، وهذا طبيعي بدهي ، ولعله يذكرنا بقول الشاعر:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

لقد اعتاد القدماء على أن ينسبوا النطق إلى هذا العضو بصفة خاصة ، ولا غرابة في ذلك ، فاللسان عضو هام في عملية النطق؛ لأنه مرّن كثير الحركة في القم عند النطق ، فهو ينتقل من وضع إلى آخر ، فيكيّف الصوت اللغوي بحسب أوضاعه المختلفة ، ومعظم الحروف تأخذ تأشيرة الخروج من اللسان ، فتخرج أصواتاً بعد أن كانت هواء زفير ، والجاحظ بما امتلك من خبرة في مجال نطق الإنسان بحث على تحريك اللسان ليكون مرناً يستطيع صاحبه أن يتكلّم به ، فهو القائل: واللسان إذا أكثر تقلبيه رقّ ولان ، وإن أقللت تقلبيه وأطلت إسكاته جسيّاً وغلظ. وقال أيضاً:

الصمتُ يفسدُ اللسان. كما يذكرُ الجاحظ قول بكر بن عبد الله المزني:
طولُ الصمتِ حُبْسَةٌ. وقول عمر بن الخطاب رحمه الله: تركُ الحركةِ
عُقْلَةٌ^(١١).

نلاحظُ من هذه الأقوال التركيز على أهمية تحريك اللسان ، والدربة
والتمرين ، ليلين في النطق ولفظ الحروف والكلمات، ثم يبينُ الجاحظ
كيف كان العرب يُروُّون صبيانهم الأرجاز ، ويعلمونهم المناقلات ،
ويأمرونهم برفع الصوت ، وتحقيق الإعراب ، لأنَّ ذلك يفتقُ اللهأة ويفتحُ
الجِزْمَ^(١٢) ، وقد أفرد الجاحظ في الجزء الأول من كتابه باباً في ذكرِ اللسان ،
ثم أتبعه بباين آخرين.

خامساً: الصوت:

يقفُ الجاحظُ يصف اللغة المنطوقة ، ويفضلها على اللغة المكتوبة ،
ولعلَّه في هذا يحاكي كثيراً ممن غمسوا أفكارهم وأقلامهم في الدرس
اللغوي ، وعلماء اللغة قديماً وحديثاً يدرسون اللغة المنطوقة؛ لأنها أدخل
في الحياة من الكتابة ، وأوغل في سلوك الفرد والمجتمع ، حتى لقد زعم
بعض العلماء أنَّ التفكير لا يتمُّ دون الكلمات^(١٣) ، فالصوت الإنساني
الحي هو موضوع علم الأصوات اللغوية ، والجاحظ يرتفعُ بالكلام
المنطوق ، ويهبط بالكلام المكتوب ، يقول: الصوت هو آلة اللفظ ،
والجوهر الذي يقوم به التقطيع ، وبه يوجد التأليف ، ولن تكون حركات
اللسان لفظاً ولا كلاماً موزوناً ولا منشوراً إلاَّ بظهور الصوت ، ولا تكونُ
الحروف كلاماً إلاَّ بالتقطيع والتأليف ، فالجاحظُ يقول: لا وجود ولا تمام
ليان الألفاظ والحروف إلاَّ بوجود الصوت وتمامه^(١٤).

وإن تساءلنا عن طبيعة الصوت الذي يريده الجاحظ ويفضله للمتكلم فلن ينال العطش فضولنا ، فالجاحظ يروينا من نهر ثقافته الغزير ، وقد أشاد بالصوت الجهير ، وحطّ من شأن الصوت الخافت ، حيث قال: كانوا يمدحون جهير الصوت ، ويذمون ضئيله ، ولذلك تشادقوا في الكلام ، ومدحوا سعة الفم ، وذموا صغره^(١٥) . ويروي الجاحظ^(١٦) خبراً عن العباس بن عبد المطلب الذي كان جهيراً ، وقد مدح بذلك ، وقد نفع الله المسلمين بجهارة صوته يوم حُنين ، حيث ذهب الناس عن رسول الله ﷺ فنادى العباس: يا أصحاب سورة البقرة هذا رسول الله . فراجع القوم ، وأنزل الله عز وجل النصر وأتى بالفتح . وثمة أشعار كثيرة يذكرها الجاحظ يمدحون فيها جهير الصوت ويذمون فيها ضئيله ، ومن طريف ما رواه الجاحظ في هذا المجال قوله: كان أبو عروة الذي يقال له أبو عروة السُّباع يصيح بالسُّبع وقد احتمل الشاة فيخليها ويذهب هارباً على وجهه ، فضرب به الشاعر المثل ، وهو النابغة الجعدي فقال:

وأزجر الكاشح العدو إذا اغد تابك عندي زجراً على أضمر

زجر أبي عروة السباع إذا أشفق أن يلتبس بالغنم

والملاحظ عند الجاحظ في حديثه عن الصوت أنه لا يتحدث إلا عن درجة الصوت بشكل عام ، من حيث الجهارة والضآلة ، أمّا مخرج الأصوات أو الحروف فلا يذكرها كما فعل الخليل و سيبويه من قبله ، واللذين كانا أكثر تفصيلاً ودقة في حديثهما عن الأصوات .

ودرجة الصوت كما برهن علماء الأصوات تتوقف على عدد الاهتزازات في الثانية ، فإذا زادت الاهتزازات أو الذبذبات على عدد

خاص ازداد الصوت حدة واختلفت درجته ، وعدد الاهتزازات في الثانية يسمى في الاصطلاح الصوتي الترددُ ، فالصوتُ العميق عدد اهتزازاته في الثانية أقلُّ من الصوت الحاد ، وهذا ما تحدث عنه الجاحظُ في ظاهرة الصوت.

سادسًا: الحروف وعيوب النطق:

من يجمع شتات كلام الجاحظ الذي دار حول الحروف وعيوب نطقها لا يخامرهُ شكٌ بأن الجاحظ علم من أعلام فقه اللغة حيث وقف بدراية و عناية عند عيوب نطق الحروف وقد فتح الجاحظ بابًا بين فيه أنواع اللثغة تفصيلًا.

قال أبو عثمان: «الحروف التي تدخلها اللثغة أربعة أحرف: القاف والسين واللام والراء. فأما التي هي على الشين المعجمة فذلك شيء لا يصوره الخط لأنه ليس من الحروف المعروفة وإنما هو مخرج من المخارج ، والمخارج لا تحصى ولا يوقف عليها». فاللثغة التي تعرض للسين^(١٧) تكون ثاء كقولهم لأبي يكسوم: أبو يكثوم ، وكما يقولون بثرة إذا أرادوا بسرة ، وبثم الله إذا أرادوا بسم الله. والثانية اللثغة التي تعرض للقاف فإن صاحبها يجعل القاف طاء ، فإذا أراد أن يقول: قلت له قال: طلت له ، وإذا أراد أن يقول: قال لي، قال: طال لي^(١٨). وأما اللثغة التي تقع في اللام فإن من أهلها من يجعل اللام ياء فيقول بدل قوله اعتلك: اعتيت ، وبديل جمل: جمبي. وآخرون يجعلون اللام كافًا كالذي أراد أن يقول: ما العلة في هذا؟ قال مكعكة في هذا.^(١٩) وأما اللثغة التي تقع في الراء فإن عددها يضعف على عدد لثغة اللام؛ لأن الذي يعرض لها أربعة أحرف ،

فمنهم من إذا أراد أن يقول: عمرو ، قال: عمغ ، فيجعل الراء غيناً^(٢٠) .
ومنهم من إذا أراد أن يقول: عمرو، قال: عمي ، فيجعل الراء ياءً ، ومنهم
من يقول: عمد ، بدلاً من عمرو ، فيجعل الراء ذالاً ، ومنهم من يجعل
الراء ظاءً معجمة فإذا أراد أن يقول: ^(٢١)

واستبدت مرة واحدة وإنما العاجز من لا يستبد

يقول: «استبدت مظة واحدة» ، ثم يعقب الجاحظ على اللثغة التي
تعرض للراء وتكون بالغين ، يقول: «والغين أقلها قبحاً وأوجدها في كبار
الناس وبلغائهم وأشرفهم وعلمائهم»^(٢٢) . وفي موضع آخر يذكر اللثغة
التي تعرض للراء من حيث عسرها ويسرها يقول: «واللثغة التي في الراء إذا
كانت بالياء فهي أحقرهن وأضعهن لذي المروءة ، ثم التي على الظاء ثم
التي على الذال فأما التي على الغين فهي أيسرهن ، ويقال إن صاحبها
جهد نفسه جهده وأحد لسانه وتكلف مخرج الراء على حقها والإفصاح
بها لم يك بعيداً من أن تجييه الطبيعة ، ويؤثر فيها ذلك التعهد أثراً
حسناً»^(٢٣) . وهذا يعني أن صاحب اللثغة بالغين لو درب لسانه ومرنه على
النطق بالراء لفترة من الزمن لاستقام لسانه وتمكن من نطقها.

بعد ذلك يعرض الجاحظ للثغة ليس إلى تصويرها سبيل كالتي كانت
تعرض لواصل بن عطاء ولسليمان بن يزيد العدوي الشاعر وكذلك
اللثغة التي تعرض في السين كنعو ما كان يعرض لمحمد بن الحجاج فإن
تلك أيضاً ليست لها صورة في الخط ترى بالعين وإنما يصورها اللسان
وتتأدى إلى السمع ، وربما اجتمعت في الواحد لثغتان في حرفين^(٢٤) .

والجاحظ لا يقدم لنا عيوب اللثة فقط وإنما يقدم حلاً لمن كان في كلامه لثة ولا يعرض هذا الحل عرضاً عابراً بل يقدمه مدعوماً بالتجربة والبرهان يقول: ولما علم واصل بن عطاء أنه ألثغ فاحش اللثغ وأن مخرج ذلك منه شنيع وأنه إذا كان داعية مقالة ورئيس نخلة وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النحل وزعماء الملل وأنه لا بد له من مقارعة الأبطال ومن الخطب الطول... رام... إسقاط الراء من كلامه وإخراجها من حروف منطقته فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه حتى انتظم له ما حاول واتسق له ما أمّل^(٢٥). إذن حلُّ اللثة عند المتكلم هو ابتعاده عن الحرف الذي يقع فيه اللثغ ولكن هل هذا الحل مجد؟

إذا كان هذا الحل قد أجدى نفعا عند عالم ثري اللغة كواصل بن عطاء فقد لا يجدي عند من قلت ذخيرة مفرداته ولعل مذهب الجاحظ المعتزلي ونصرته لهذا المذهب هما الدافع وراء ذهابه لهذا الحل^(٢٦). والجاحظ الذي نهل من أستاذه الأصمعي^(٢٧) الكثير في مجال الدراسة اللغوية لم يقف عند عيب اللثة فقط بل ذكر عيوباً أخرى كالتمتمة والفأفة واللفف والحبسة يقول الجاحظ: قال الأصمعي: «إذا تتعتع اللسان في التاء فهو تتمام، وإذا تتعتع في الفاء فهو فأفاء»، ثم يعرض الجاحظ لرأي بعض العلماء في هذه العيوب فيقول: «جعل الخولاني التتمام غير معرب عن معناه ولا مفصح ب حاجته في قوله:»^(٢٨)

إن السياط تركن لاسيتك منطقاً كمقالة التتمام ليس بمُعرب
وقال أبو عبيدة: «إذا أدخل الرجل بعض كلامه في بعض فهو ألف،
وقيل: بلسانه لف»، وأنشدني لأبي الزحف الراجز:^(٢٩)

كأن فيه لفظاً إذا نطق من طول تحببهم وهم وأرق

وقال ابن فارس في التعتة : يقال تتع الرجل : إذا تبدل في كلامه^(٣٠).
وقال غيره: التعتة في الكلام: التردد فيه من حصر أو عي^(٣١). ثم يتحدث
الجاحظ عن صاحب الحبسة والعقلة : يقال في لسانه حبسة إذا كان الكلام
يثقل عليه ولم يبلغ حد الفأفاء والتمتام ، ويقال في لسانه عقلة إذا تعقل
عليه الكلام ، ويقال في لسانه لكنة إذا أدخل بعض حروف العجم في
حروف العرب ، وجذبت في لسانه العادة الأولى إلى المخرج الأول فإذا
قالوا في لسانه حكلة فإنما يذهبون إلى نقصان آلة المنطق وعجز أداة اللفظ
حتى لا تعرف معانيه إلا بالاستدلال^(٣٢). يوضح الجاحظ أن بعض
العيوب التي تلحق بالحروف وبالمنطق تأتي من تداخل حروف العجم مع
حروف العرب. إن الجاحظ يذكر عيوباً كثيرة تلحق بالحروف وبالمنطق
كاللغة التي تتمثل في التمام والفأفاء وقد شرحناه سابقاً ، ثم اللجلج^(٣٣)
وهو مَنْ ثَقُلَ لسانه وتردد في كلامه ، وذو الحبسة^(٣٤) وهي نوع من العجز
النطقي ناتج عن ثقل في اللسان تمنع صاحبها من الإبانة عن مراده حيث
لا يفهم المخاطب إلا بعد مشقة ، وللحبسة عند الجاحظ أسباب متعددة:
فهي قد تكون من عجز في الخلقة كحبسة موسى عليه السلام لأن الجاحظ
في معرض حديثه عن العي والبيان وعندما تحدث عن حبسة موسى عليه
السلام جعل الحبسة مرادفة للعقدة أو التعقيد^(٣٥) في قوله تعالى: ﴿وَاحْلُلْ
عُقْدَةَ مَنْ لُسَانِي﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿ [طه: ٢٧ ، ٢٨].

وقد تكون الحبسة من أثر اللغة السابقة على العربية كالحبسة التي نفاها أبو عثمان عن اسماعيل عليه السلام فقال: «ولا بد من أن نذكر فيه شأن إسماعيل عليه السلام وانقلاب لغته بعد أربع عشرة سنة وكيف لفظ بجميع حاجاته بالعربية على غير تلقين ولا ترتيب وحتى لم تدخله عجمة ولا لكنة ولا حبسة ولا تعلق بلسانه شيء من تلك العادة»^(٣٦). وقد تكون من طول الصمت فقط كالحبسة المشار إليها في قول أبي بكر بن عبدالله المزني: طول الصمت حبسة^(٣٧).

أما الحكلة فقال عنها أبو عثمان: يقال في لسانه حكلة ، إذا كان شديد الحبسة مع ألثغ^(٣٨). والحكلة هي كالعجمة لا يبين صاحبها الكلام ، وهي ضرب من العجز النطقي الشديد الذي يتولد من اجتماع عدة آفات في جهاز النطق ، تمنع الإنسان من البيان عن المراد ، ومن الطلاقة في التعبير ، والفصاحة في أداء الحروف^(٣٩). فذو الحكلة إذن أعجم ، ألثغ ، ذو حُبسة ولا جرم أنه في طليعة من استولى على بيانهم العجز ، قال أبو عثمان: والناس لا يلومون من استولى على بيانه العجز وهم يذمون الحصر وليس اللجلج وذو الحُبسة والحُكلة في سبيل الحصر^(٤٠). وهكذا يمضي الجاحظ في تعداد عيوب كثيرة تصيب النطق كصاحب الرثّة وذو اللفف والعجلة والعجمة وصاحب التشديق والتعير والتعيب^(٤١). كما تحدث الجاحظ عن تمام الحروف أي النطق بها على الوجه الأكمل ولا يكون ذلك إلا مع تمام الأسنان ولذلك فالنقصان في الأسنان يؤدي إلى النقصان في الحروف

قال أبو عثمان: وزعم يحيى بن نجيم بن معاوية بن زمعة أحد رواة أهل البصرة قال: قال يونس بن حبيب في تأويل قول الأحنف بن قيس:

أنا ابن الزافرية أرضعتني بشدي لا أجد ولا خيم
أمتني فلم تنقص عظامي ولا صوتي إذا جدّ الخصوم

قال: إنما عني بقوله: عظامي ، أسنانه التي في فمه وهي التي إذا تمت تمت الحروف، وإذا نقصت نقصت الحروف^(٤٢).

سابعاً: اللحن:

يفرد الجاحظ في كتابه البيان والتبيين باباً خاصاً باللحن ثم يتبعه بباب آخر في ذكر اللحنين البلغاء وهذا يعني أن الجاحظ أدرك تماماً خطورة هذا الموضوع ، ومما جاء في هذا الباب^(٤٣) قول أبي عثمان: قال أبو الحسن: أوفد عبيدالله بن زياد إلى معاوية ، فكتب إليه معاوية: إن ابنك كما وصفت ولكن قوم لسانه ، وكانت في عبيدالله لكنة لأنه كان نشأً بالأساورة مع أمه مرجانة ، وكان زياد قد زوجها من شيرويه الأساوري وكان قال مرة: افتحوا سيوفكم، يريد سُلوا سيوفكم. لقد أشار الجاحظ في هذا النص إلى أن بعض اللحن قد أتى من مجاورة الأعاجم فلاساورة في النص ، هم قوم من العجم بالبصرة نزلوها قديماً.

ثم يتابع أبو عثمان: قال يوسف بن خالد السمطي لعمر بن عبيد: ما تقول في دجاجة دُججت من قفائها؟ قال له عمرو: أحسين. قال: من قفاؤها. قال: أحسين. قال: من قفائها. قال عمرو: ما عنّاك بهذا؟ قل من قفاها واسترح^(٤٤). ثم يورد الجاحظ بعض الأقوال في ذم اللحن، يقول:

قال عبد الملك بن مروان :اللّٰحن هُجّنة على الشريف، والعجب آفة الرأي. وكان يُقال: اللّٰحن في المنطق أقبح من آثار الجدري في الوجه^(٤٥). وقد عرض الجاحظ لرأي بعض العرب الغيارى على اللغة - وما أكثرهم - اللذين أوصوا بتعلم النحو. يقول أبو عثمان: كان أيوب السخيتاني يقول: تعلموا النحو، فإنّه جمال للوضع، وتركه هُجّنة للشريف. وقال عمر رضي الله عنه: تعلّموا النحو كما تعلّمون الفرائض والسنن^(٤٦). كما يذكر الجاحظ لأوّل لحن سُمِعَ بالبادية، ولحن سُمِعَ بالعراق، يقول: قالوا: وأوّل لحن سُمِعَ بالبادية: هذه عصاتي ، وأوّل لحن سُمِعَ بالعراق: حيّ على الفلاح^(٤٧). ومن هنا كان اللّٰحن الباعث الأوّل على تدوين اللغة وجمعها، وعلى استنباط قواعد النحو وتصنيفها ، فقد أقلق اتساع اللحن أولي الأمر والنظر فحدّثوا منه واستهجنوه وسعوا إلى مقاومته.

ثامناً: اللهجة والفصحى:

أدرك ما يصيب اللغة الفصحى نتيجة لهجات القبائل العربية ،ولغات غير العرب ، ولا شكّ في أنّ الفصحى هي محراب الجاحظ وسراج المنير، والعربي الفصيح عند الجاحظ هو الذي استطاع الدّود عن الفصحى ، فقال قائل : قوم ارتفعوا عن لخلخانية الفرات، وتيامنوا عن عننة تميم، وتياسروا عن كسكسة بكر، ليست لهم غمغمة قضاة ولاطمطمانية حمير. قال: من هم؟ قال : قریش^(٤٨). والجاحظ في حقيقة الأمر لا يبت في هذه القضية ، وها هو يقول: حدثني أبو سعيد عبد الكريم بن روح

قال: قال أهل مكة لمحمد بن منذر الشاعر : ليست لكم معاشر أهل البصرة لغة فصيحة وإنما الفصاحة لنا أهل مكة ، قال ابن منذر: أما ألفظنا فأحكى الألفاظ للقرآن وأكثرها لها موافقة ، فصنعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم. أنتم تسمون القدر بُرمةً وتجمعون البرمة على برامٍ ونحن نقول قدر ونجمعها على قدور وقال الله عز وجلّ (وجفانٌ كالجواب وقدور راسيات) . يقول الجاحظ :فعدّ عشر كلمات ؛ أي عشر كلمات لأهل البصرة أحكى لألفاظ القرآن من ألفاظ أهل مكة .

أما ما يتعلق باللغات الأجنبية الدخيلة فقد رأى فيها الجاحظ مجال تأثر وتأثير، يقول: واللغتان إذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كلّ واحدة منهما الضيم على صاحبها كما يُستفاد من أخبار أوردها الجاحظ أنّ اختلاف اللهجات يكون أحياناً ، نتيجة مجاورة بلاد الفرس وبلاد النبط للبلاد العربيّة ، وهذا كلام لا ريب فيه ، لأنّ علماء اللغة في عصر الاحتجاج ، قد استبعدوا جميع اللهجات المجاورة لبلادٍ أجنبية لأنّ الكثير من الألفاظ الدخيلة قد علقت بألفاظهم . وهذا ما ذكره أبو عثمان في كتابه ، يقول : «ألا ترى أنّ أهل المدينة لما نزل فيهم ناس من الفرس في قديم الدهر علقوا بألفاظ عن ألفاظهم ولذلك يسمون البطيخ الخريز ، ويسمون السميّط الزردق ، وكذلك أهل الكوفة، فإنهم يسمّون المسحاة بال ، وبال فارسية»^(٤٩).

وأخيراً ما من شك أنّ الجاحظ ليس لغوياً محضاً، وإنّما حاله حال البحر ، والبحر فيه منافع كثيرة ومتنوعة، فالثقافة اللغوية للجاحظ ما هي

إلاً فيضٌ من جدول ثقافته الغزير والمتنوع ، والتي تدفقت على لسانه دون أن يعوقها عائق.. وإن دلّ هذا على شيء ، فإنّما يدلُّ على عظيم عبقريته واتّساع علمه.. فالجاحظ «يلهو بالمعاني هوّاً، فيخرج من فكرٍ إلى فكرٍ، ومن معنى إلى معنى ، ولكنّه يضرب في آفاق كلّ المعاني ، ويجول في ميدان كلّ الأفكار» (٥٠).

المصادر والمراجع

- ١- الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، دار وهدان، مصر، ط٥ ، ١٩٧٩م.
- ٢- التفكير النقدي عند العرب، عيسى علي العاكوب، دار الفكر، دمشق، ط١ ، ١٩٩٧م.
- ٣- الجاحظ حياته وآثاره، طه الحاجري، دار المعارف، مصر ١٩٦٢م.
- ٤- الجاحظ في حياته وأدبه، جميل جبر، دار الكتاب اللبناني ١٩٥٩م.
- ٥- الجاحظ معلم العقل والأدب، شفيق جبيري، المجمع العلمي العربي، ١٩٣٢م.
- ٦- الخصائص، ابن جنّي، ت: محمد علي النجار، دار الهدى، بيروت، ط٢، د.ت.
- ٧- الصحابي في فقه اللغة، ابن فارس، مطبعة المؤيد، القاهرة. ١٩١٠م.
- ٨- ظواهر لغوية، عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.
- ٩- علم اللغة، محمود السعران، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، حلب، ١٩٩٤م.
- ١٠- فقه اللغة العربية، أحمد قدور، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، حلب، ٢٠٠٣م.
- ١١- الكتاب، سيبويه، ت: عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت، د.ت.
- ١٢- اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط٣، ١٩٩٨م.
- ١٣- المنخل إلى علم اللغة، رمضان عبد التواب، مطبعة المدني، ط١، ١٩٨٢م.
- ١٤- مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيين، الشاهد البوشيخي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٩٨٢م.
- ١٥- معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ت: عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط٢، ١٩٦٩م.
- ١٦- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر ومحمد علي النجار، ط٣، ١٩٩٣م.
- ١٧- مولد اللغة، الشيخ أحمد رضا، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٣م.

الهوامش :

- (١) انظر البيان والتبيين: ٢٧١/١
- (٢) المدخل إلى علم اللغة ص ١١١-١١٢
- (٣) انظر علم اللغة لمحمود السمران: ص ٣٠ ، والأصوات اللغوية لإبراهيم أنيس: ص ١٦ .
- (٤) انظر البيان والتبيين: ٦١/١ .
- (٥) المصدر نفسه: ٦١/١ .
- (٦) المصدر نفسه: ٦١/١ ، ٦٢ .
- (٧) انظر البيان والتبيين: ٦٣/١ .
- (٨) المصدر نفسه: ٦٤/١ .
- (٩) انظر الأصوات اللغوية: ص ٤٤ ، ٤٥ ، وعلم اللغة: ص ١٧٣ ، ١٧٤ .
- (١٠) انظر الكتاب: ٤/٣٢ ، ٤٣٣ .
- (١١) انظر البيان والتبيين: ٢٧٢/١ .
- (١٢) المصدر نفسه: ٢٧٢/١ .
- (١٣) انظر اللغة العربية معناها ومبناها: ص ٤٦ .
- (١٤) انظر: البيان والتبيين: ١٢٠/١ ، ١٢١ .
- (١٥) انظر الموضوع السابق نفسه.
- (١٦) المصدر نفسه: ١٢٣/١ .
- (١٧) انظر: البيان والتبيين ، ٣٤/١ .
- (١٨) انظر: المصدر السابق ، ٣٤/١ .
- (١٩) انظر: المصدر السابق ، ٣٥/١ .
- (٢٠) انظر: المصدر السابق ، ٣٥/١ .
- (٢١) البيان والتبيين: ٣٥/١ .
- (٢٢) المصدر نفسه: ١٥/١ .
- (٢٣) المصدر نفسه: ٣٦/١ .
- (٢٤) انظر: البيان والتبيين ، ٣٦/١ .
- (٢٥) المصدر نفسه ، ١٤-١٥ .
- (٢٦) انظر: الجاحظ في حياته وأدبه وفكره ، جميل جبر ، ص ١١٩-١٣٧ . وانظر: الجاحظ معلم الأدب و العقل ، ص ١٥٨-١٦٧ .

- (٢٧) انظر: الجاحظ معلم العقل والأدب ، ص ٦٦-٦٧ .
- (٢٨) المصدر السابق ٣٨/١ .
- (٢٩) المصدر السابق ٣٨/١ .
- (٣٠) معجم مقاييس اللغة ، ٣٣٨/١ .
- (٣١) نقلاً عن مصطلحات نقدية وبلاغية ، ص ١٣٩ . و لم يذكر صاحب القول .
- (٣٢) البيان والتبيين ، ٣٩/١ - ٤٠ .
- (٣٣) انظر: المعجم الوسيط ، ص ٨٤٩ .
- (٣٤) انظر المصدر السابق ، ص ١٥٨ ، وانظر مصطلحات نقدية وبلاغية ، ص ١٥٥ .
- (٣٥) انظر: البيان والتبيين ، ٧/١ - ٨ .
- (٣٦) المصدر نفسه ، ٣٨٣/١ .
- (٣٧) المصدر نفسه ، ص ٢٧٢ .
- (٣٨) البيان والتبيين: ٣٢٥/١ .
- (٣٩) انظر: المعجم الوسيط ، ص ١٩٦ . وانظر مصطلحات نقدية وبلاغية ، ص ١٦٤ .
- (٤٠) البيان والتبيين ، ١٢/١ .
- (٤١) الرُّكَّة: العجمة في اللسان ، و هي النثغة و التردد في النطق . المعجم الوسيط ، ص ٣٢٩ .
واللفظ: العيبي بطن الكلام ، إذا تكلم ما لسانه فمه . المعجم الوسيط ، ص ٨٦٦ . والعجلة: العجالة في الكلام . والعجمة: هي لكنة في اللسان وعدم فصاحة . المعجم الوسيط ، ص ٦٠٧ . وانظر : مصطلحات نقدية وبلاغية ، ص ١٩٥ . والتشديق: أن يلوي الرجل شِدْقَه بكلام يتفصّح ، المعجم الوسيط ، ص ٤٩٥ . والتقير والتعيب: أن يتكلم الرجل بأقصى حلقه .
- (٤٢) البيان والتبيين ، ٥٩/١ .
- (٤٣) البيان والتبيين : ٢١٠/٢ .
- (٤٤) المصدر نفسه: ٢١٢/٢ .
- (٤٥) المصدر نفسه: ٢١٦/٢ .
- (٤٦) المصدر نفسه: ٢١٩/٢ .
- (٤٧) المصدر نفسه: ٢١٩/٢ .
- (٤٨) البيان والتبيين: ٢١٢/٣ ، ٢١٣ .
- (٤٩) البيان والتبيين ١٨/١ .
- (٥٠) الجاحظ معلم العقل والأدب: ص ٦٦ .